ذو الجناحين

للأستاذ محمود الخفيف

[إلى كل مؤمن تهون عليه روحه في سبيل الله]

لذكرى شهادته أطرب ... وإني بها الساجع المطرب
ألوذ بها في سواد الخطوب ... فيؤنس روحيَ ومض لها
كما يؤنس الثلجَ الكوكب
كميٌّ أبوّته هاشم ... يشع الهدى وجهه الباسم
إذا الهول ضجت به حومة ... فكالسهم وثبته في الصفوف
وكالسيف عزم له صارم
أخوه عليٌّ إمام الهدى ... وخير السيوف غداة الفدا
شبيه به جعفر في خجاه ... ويشبهه إذ يهز الحسام
لضرب وإذ يتحدى الردى
أتى الروم آلافهم تزحف ... بموتة واد بهم يرجف
تضيق الأباطح عن سيلهم ... فلا العين أولهم تستبين
ولا الوهم آخرهم يعرف
خضم تراءى بهم زاخر ... يغطي الضحى نَقْعُهُ الثائر
إذا أحصت العين آلافهم ... رأت حولها مائة أو تزيد
يَعِجُّ بهم موجُه الحادرُ
دخان هناك ونقع هنا ... وبرق لهم يبرق الأعْيُنا
وخيل تحمحم مهتاجة ... وبيضٌ يطلّلُ إيماضها
مُثارُ الغُبار وسُمرُ القنا
دنت من مُخَيَّم جند العرب ... جياد من الروم رُعْنُ الخبب
جياد تلألأ ديباجها ... فوارمها يلبسون الحديد
على سُرُجٍ وشّيَتْ بالذهب
تداعوا إلى الضرب إذ أحدقوا ... بجمع يكاد بهم يُغرَقُ
بجيش من البيد لم يدّرع ... بغير اليقين ولا رَاعَهُ
نُضَارٌ يَرَاهُ ويستبرقُ
قليل العديد ضئيل الخطر ... وما في الصحارى له من وزر
عجاف من الجوع خيل لهم ... مئات ثلاثون قد هدّهم
على قلة الزاد طول السفر
قليل ولكنهم في اللقا ... كثير إذا اضطرم الملتقى
شداد وإن لم يجروا الحديد ... خفاف إلى الموت إن أقبلوا
ثقال إذا دخلوا مأزقا
تأمّر زيد وأعلى اللواء ... أميرٌ من السيف أقوى مضاء
له البدء حتى إذا ما هوى ... فجعفر للجيش يمدُ الأمير
يعيد اللقاء ويحيي الرجاء
مشى بهم الفارس الأروع ... له الجيش من كَفِّهِ أطوع
هم المؤمنون الذين اشتروا ... بأرواحهم جنة مالهم
وراء الخلود بها مطمع
تداعى الرجال فسوّى الصفوفا ... وشدّ بهم ليخوضوا الحتوفا
فكاثره الروم إذ غاظهم ... من القلة البارزين لهم
حفاظ به يدفعون الألوفا
وراحت بهم ترجف الراجفة ... رُعُودُ المنايا بها قاصفة
وخفّوا يبيعون أرواحهم ... فكم زلزلوا من صفوف العدو
وكم حسروا لُجّة جارفَهْ
وسارَ ابنُ حارثةٍ مُعْجَلاً ... فكان الشهيدَ بها الأوّلا
ألحّتْ عليه غِلاظ السُّيوفِ ... وكم ونْبَةٍ هدّها سيْفُهُ
وحيداً ، وكمْ فارسٍ جَنْدَلا
وأقدمَ من بعده جعفرُ ... غضوباً كما وثبَ القَسْوَرُ
تلاطمَ موجُ الرّدى حولَهُ ... وجُنّ جنونُ الوغى إذ جرَى
على الأرضِ ذائبُها الأحمرُ

وقلّتْ بها القِلّةُ الصابره رَحى الموتِ جدّت بهم دائره
على الأرض من حولهم ظالمة غبار ورعـــد وبرق هنا
ومن ها هنـــا كرّةٌ سافره

وخاض الوغى الفارس المُعْلَمُ يسربله ـ نقعهـــا والدم
بيمناهُ رايتهـــا جعفرٌ يثور به عِرقُهُ الهاشميُّ
كما نَفِرَ القَسْوَرُ الضَّيْغَم

تحدّى الحتوفَ وأهوالها وقد هاجت الحرب أبطالها
وما زُلزلَ القِلّةُ المؤمنونَ وإن غصّ بالأكثرين الفضاء
وزلزلتِ الأرضُ زلزالها

تنقّل فى حرّها جاهـــدا صبوراً لِلَأوائها صامدا
إلى أنْ تصدّى له فاتكٌ فأهـــوى على يده ضاربا
بسيفٍ أطنَّ به الساعِدا

تماسكَ للخطب لم يَجزعِ وكرَّ الكميُّ ولم يرجعِ
بيسراه رايته ، واليمين على الأرض ساعدها فالِجَةْ
تموت ، من البطل الأروَعِ

وظلتْ بقيّتها نازفـــهْ وقد صخبت حوله العاصفهْ
فلله وثبتـــه إذ يفورُ دم قـــد سقى الأرض منه
ومن كَثبٍ كثرةٌ زاحفه

مضى مُنْهكاً يتلقى الرماحا وصمم ليس يخاف اجتياحا
تراه ورايتـــه فى الشمال كنسر يَجر الجناحَ المهيضَ
ويرفع كيما يطـــير جناحا

وفتيان صدقٍ مضوا حوله وقـــد رقّ كل فؤادٍ له
يذودون عن بطل نازفٍ يقـل المثيل له فى الرجال
وما فاقـــه فارس قبـــله

جليدٌ مع النزف لا يستطارُ وفى وجهـه للحمام اصفرارُ
تسـلّلَ حتى دنا دارعٌ فـا زال يَضرب حتى هَوت
من الليث بعـد اليمين اليسار

فهلْ فزعَ الحرُّ واستسلما ولم تُبق منه السيوف دما ؟
تقـــدم محتضناً ممسكا بزنديه رايتـه فى الصفوف
وظل الكمىَّ بهـــا معلما

ترنح مما به الفـــارسُ وما وهنَ الأسدُ العابسُ
وظلَّ على صهوات الخطوب يلاقى الرَّدى فلذةً فلذةً
وما فلَّ عـــزْمٌ له هاجسُ

وأسلم مهجتـه للظُّبا كؤوسَ المنيّة مُستعذبا
فياهول مصرعه والسيوف تهاوى على جسمه القَسوريّ
وما يملك الليث أن يضربا

تكلم مُرتجـــزاً مُنشدا « لدين الهدى قلّ منى الفدا
الا خسىء الكفر والكافرون جزائى غـــدا جنة المتقين
وأعظم بجنّتهم موردا »

تبسّمَ للموت إذ أغمضـــا على وجهـــه لمحات الرضا
فتى بات للمجـــد أنشودة إذا ذُكِرَ المؤمنون الفداء
على الدهر ذكرٌ له أو مضا

تقشّع من فوقه العِثيَرُ وآماق أصحـــابه تُمطِرُ
جراح ثمانون فى جسمه ومن عَضُدَيه نجيعٌ يسيل
ومن عاتقيـــه دم يقطر

بقيّةُ لَيْثٍ رَدَاه استبقْ وجسمٌ بتلك الفيافى مزَقْ
تجاوز فى البأس جهد الخيال وأبلى بَلاءَ امرىء صادق
وأين له النـــد فيما صـــدق

نَعَاهُ النبيُّ وفى قلبـــه بكاء عليـــه وبشر به
وصلى عليـه الرسول الكريم وقال وفى مقلتيـه الدموع
لمن علم الرزء من صحبه :

« هنيئاً له نفســـه الراضية بجنات عدن غدت ثاوية
سيبدلك الله بالساعـــدين جناحين يا ابن أبى طالب
تسبح فى الجنـــة العالية »

وزاد الرسول : « كأنى أرى هناك الشهيد الفتى النيّرا
فى جنـة الخلد رهط يطير ملائكة بينهم جـــعفر
يهز الجناحين مستبشرا »

شهيـــد فؤادى له يطرب وإنى به الشاعر المطرب
أجَدِّدُ ذكراه مُستوحياً فيملأ قلبى وحىٌ لهـــا
يفىْ كما بزغ الكوكب

الخفيف

الذى أجراها على يد الرسول هو الله فاطر الفطرة ومرسل الرسول .

والعلم أسرع إلى التسليم بمثل هذا الدليل إن ثبت لديه وقوعه ، لأن العلم أعرف وأبصر بعجز الإنسان عن خرق عادة الفطرة وسننها فى الكون . فابتلاع العصا لعصىّ السحرة وحبالهم ، وإبراء الأكمه والأبرص فى لحظة ، وإحياء الموتى بكلمة — هذا وشبهه يعرف العلم ويعرف الناس أنه مما لا يقدر عليه البشر . فلو ثبت لدى العلم وقوعه فى ظروفه لسلّم العلم بدلالته .

لكن إذا قُدر أن يبحث العلم الأديان عن طريق بحث ظاهرة النبوة فسيجد أن العقبة فى سبيله هى أن معجزاتها قد مرت وانقضت فهو لا يجد سبيلا إلى بحث شىء منها . إلا معجزة واحدة لرسول واحد على دين واحد : إلا القرآن ، معجزة الإسلام على يد محمد بن عبد الله . لقد ذهبت المعجزات كلها وبقى ، وتغيرت الكتب وحرفت ولم يتغير هو ولم يحرف . وعلى أى حال فهو هنا معنا ومع العلم والعلماء لمن شاء أن يبحث أو يفحص . فلو قدر للإنسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام ديناً يثبت للفحص العلمى ، إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم وتبقى إلى ما شاء الله لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص ، وليهتدى البشر بفحصها إلى الله ، وليعلموا عن طريقها أن الإسلام هو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس : جعل كتابه عين معجزته ومعجزته عين كتابه ليكون حفظ الدين وحفظ معجزته أمراً واحداً سواء ، ولتدوم حجة الله على الناس .

ودلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله لا من عند بشر أمر تنبهر منه العقول إذا نظرت فيه نظرة علمية صادقة . ففيه أولا التحدى : تحدى العرب وتحدى البشر أن يأتو بسورة من مثله . وهذا التحدى وحده دليل عجيب على أنه ليس من عند محمد . فلو علم محمد من نفسه أنه قائله ما اجترأ وهو ما هو من العقل ، وهم ما هم من الفصاحة ، أن يتحدى العرب بله البشر أن يأتوا بمثله ، ثم بعشر سور من مثله ، ثم بسورة ، ثم بجعل أقصر سورة لا تزيد على عشر كلمات !

فهذا من غير شك دليل عجيب . وأعجب منه عجز العرب خصومه — وقد كانوا جميعاً خصومه فى الأول — أن يقبلوا هذا التحدى ويهدموا محمداً ودعوته بالإتيان بسورة من مثل سور القرآن القصار .

وعجزهم ذلك جاء مصدقاً لنبوءة تنبأها لهم حين تحداهم أنهم لن يفعلوا . ولم يفعله أحد من البشر إلى الآن . فاعجب من كلمتين اثنتين — وإن تفعلوا — فامتا بصدقهما المستمر معجزة باقية على الزمن

وعجز العرب والبشر عن سورة قصيرة من القرآن أمر غريب عجيب يجعل من القرآن الكريم ألف معجزة فى معجزة ، لأن القرآن قدر أقصر سوره آلافاً من المرات .

وسر هذا العجز هو نفس سر عجز البشر عن خلق شىء مما حولهم فى الفطرة . فالقرآن والفطرة كلاهما من عند فاطر الفطرة بل هو دين الفطرة وكتابها . وقد جهد الناس قديماً وحديثاً فى الوقوف على سر إعجاز القرآن فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يغرف غارف من بحر وإن ظن ظان أنه قد بلغ . وليس إعجاز القرآن الناسَ هو كل دلالة القرآن على أنه من عند الله .

ليت من يقوم بالقرآن وللقرآن يحفظه ويفحصه ، ويجلو برهانه للناس من جديد . ليت المسلمين لم يشغلوا عن القرآن بكلام البشر ، ولم يحاولوا أن يتأولوه حين يجدونه غير نازل على أهوائهم وعلى ما يظنونه المناسب للعصر الحديث . ليت فى علماء الإسلام جماعات تلقوا صنوف العلم الطبيعى وتمكنوا من علوم القرآن ليجلوا للإنسانية القرآن على النمط العلمى الذى هو من نمط النظر القرآنى وفيه للانسانية فى هذا العصر العلمى مقنع .

ليت المسلمين ينتبهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ، ويعدوا للدعوة إلى الله وإلى القرآن عدتها . فالإنسانية فى حاجة إلى دين الفطرة ، وما المسلمون بأقل حاجة من الإنسانية إلى تبصير بالإسلام

محمد أحمد الغمراوى

إعلان

يوجد بإدارة التوريدات بوزارة المعارف عدد محدود من نسخ الجزء الثانى من آثار أبى العلاء — وتباع النسخة للراغبين بمبلغ جنيه مصرى واحد .

٤٦٩٣

الحكمة ، وتبدو على قسمات وجهه علائم الصدق والإخلاص ؟

لقد « عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ! لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وقد يئس من خيرهم » .

وتمثل ، عليه السلام ، قومه وقد علموا بوفد ثقيف إياه ، فكره ما يكون من شماتتهم به وانبعاثهم في إيذائه ، فقال للذين وفدوه : أما إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . ولكنهم « أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، فكان يمشي بين سماطين منهم ، فكلما نقل قدماً رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء ، فإذا أذلقته[1] الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ... وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، فكلما انصرف عنه من كان يتبعه من السفهاء اتجه ببصره إلى السماء ودعا ربه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ! يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ! إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ! ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك! لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوة إلا بك ! ».

شكا إلى ربه ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ، لا تبرما بما لقي ، ولا تهربا مما حمل ، ولكنه يريد للدعوة نجاحا عاجلا ، ونصرا سريعا ، ويرى الناس وقد تنكروا لها في شخصه فأمعنوا بها تنكيلا وحربا لا فرق في ذلك بين المشركين في شعاب مكة ، والمشركين في سهول الطائف ، فكأنما تواصى الجميع على وأد هذه الدعوة والحيلولة بينها وبين الحياة ، ولذلك قال : إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ فإلقاء هذا المعنى في روع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإجراؤه على لسانه في دعائه لربه كان إيذانا بأن أمر الدعوة سيتجه بعد اليوم وجهة أخرى ، وسيهيء الله له من القلوب المستعدة ما يكون كفيلا بتقدمه ونجاحه ، وهذه سنة الله في خلقه : أن يأتي الفرج بعد الشدة ، والنور بعد الظلمة . وقد كان ذلك فعلا فلم يطل الأمر بدعوة الإسلام حتى هيأ الله لها قلوب الأنصار في يثرب ، واستبدل بالمعاندين المصرين قوما آخرين .

وما أعظم هذه الكلمة الطيبة التي يقولها « محمد » لربه في مناجاته إياه « إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ! » تلك مرتبة الرضا والفناء في الحب ، والإستهانة بكل ماسواه من أهوال الدنيا .

هذا مثل التضحية ، والاخلاص للفكرة ، والاقدام في سبيلها على الخطر ، والفناء وانكار الذات !

٣٠ — ومثل آخر يضربه للمؤمنين « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، هو مثل السياسة الرشيدة الحكيمة ، المستندة إلى المحبة ، القائمة على الاخلاص :

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم عطاياه السمحة وكان فيهم من قومه أبو سفيان وابنه معاوية وغيرهما ممن أسلموا بعد فتح مكة ، وجد الأنصار بعض الشيء من ذلك ، وضاقت له صدورهم ، وكأنهم نظروا إلى هؤلاء الذين كانوا بالأمس أعداءهم ، والذين أذاقوا رسول الله وأذاقوهم ألوان العذاب وقد أصبحوا فيما بين يوم وليلة يتمتعون بهذا العطف النبوي الكريم حتى ليزيد حظهم عند القسم على حظوظ السابقين من المؤمنين ، فلم تتضح عندهم الحكمة في هذا الصنيع ، ومشى بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتساءلون ، وقال قائل منهم لصاحبه « لقد لقي رسول الله قومه ! » يريد أن عاطفته لقومه وعشيرته قد غلبته حتى أنسته سابقة الأنصار ، وفضل الأنصار .

كان من الممكن أن تستشري هذه الموجدة في نفوس الأنصار ، وكان من الممكن أن تغذيها الطبيعة البشرية بغذائها حتى يستفحل داؤها ، وكان من الممكن — على الزمن — أن تمرض هذه القلوب الصافية المؤمنة التي تلقت الإسلام غضا فتمهدته حتى نما وترعرع

(١) أذلقته : أضعفته

وأظهره الله وأتم به النعمة . كان من الممكن أن يكون ذلك كله لو كان أحد ما مكان « محمد » ولو كانت بيئة ما غير بيئة الإيمان والحب والثقة . ولكن الله ألهم سعد بن عبادة الأنصاري أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم قالة الأنصار، فلما سمعها بادر بجمعهم وقال لهم : يا معشر الأنصار . ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى . الله ورسوله أمنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل ! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مُكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في لُعَاعة[1] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ ! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلكت الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار !

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمته تأثر بها الأنصار حتى بكوا وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظاً !

هذه هي السياسة الرشيدة التي تستل ما في النفوس من موجدة ، وتتلافى بوادر الشر فتحسمه قبل أن يتفاقم . وإن هذا الكلام الذي ألقاه النبي في الأنصار ليحتاج إلى عالم قدير من علماء النفس ليبين لنا مدى انطباقه على الأسلوب العلمي الحديث لطب النفوس !

٣ — والمثل الثالث — ويا له من مثل — هو آية العدل والتسوية وعدم المحاباة ، وإيثار الله على كل ما سواه : ذلك أن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله وناصره ومجيره من أعدائه ، على الخلاف بينهما في الدين ، لما مات ، كأن المسلمين ترقبوا أن يستغفر له الرسول وأن يؤذن لهم في أن يستغفروا له ، إعظاماً لشأن أبي طالب ، ووفاء لصنيعه مع النبي ، وتسلية لأبنائه وقرابته وفيهم علي ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بذلك أو فعله فنزل قوله تعالى ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .

بذلك وضع الأمر في نصابه ، وتبين للمؤمنين أن لا محاباة ولا قرابة ولا صهر أمام الحق ، وأن العلاقة الوحيدة التي تجب رعايتها والاعتداد بها هي علاقة الإيمان فحسب .

ولقد كان هذا الأمر كافيا لزلزلة النفوس في هذه البيئة العربية التي تعنى بالقرابات ، وتهتم بالعصبيات ، ولا سيما في شأن أبي طالب شيخ قريش ، وأبي علي ، وأخي العباس ، وعم محمد ، ولكن القوم قبل كل شيء مؤمنون قد امتلأت نفوسهم بحب الله ، فما على الرسول إلا البلاغ ، وما عليهم إلا الرضا والامتثال !

* * *

من لنا بأن نجتلي هذه المثل العليا وأمثالها في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لتكون لنا نوراً وهدى في هذه الظلمات التي يتخبط فيها الناس .

اللهم إنا نسألك التوفيق .

محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة

(١) اللعاعة الضوء البسير .

ظهرت اليوم الطبعة الأولى للجزء الثاني من كتاب :

حكايات من الهند

٦٨ حكاية قصيرة

أبدعها الكاتب الهندي إيار

وضمنها الرمز والإيحاء والحكمة والموعظة الحسنة

واختارها وترجمها

عبده حسن الزيات

محام

ثمن النسخة ١٧ عدا البريد